كاترينا دوبلر

"لك

المُلك"

رواية

claassen

Wir verpflichten uns zu Nachhaltigkeit
- Klimaneutrales Produkt
- Papiere aus nachhaltiger Waldwirtschaft und anderen kontrollierten Quellen
- ullstein.de/nachhaltigkeit

نُشرت رواية ***لك المُلك*** بدعم من برنامج عابري الحدود التابع لمؤسسة روبرت بوش ومنتدى برلين الأدبي وكذا بدعم من خلال منحة إقامة في بيت لوكاس للفنانين، أهرنشوب.

إثبات المصادر

إمر كيرتيس، مذكرات سفن القادس، ترجمة كريستين شفام

© 1993، دار روفولت للنشر، برلين

Rowohlt.Berlin Verlag GmbH

MIX
Papier
FSC FSC® C014496

كل التجارب تذهب سدى.

إلا أنه سرًا، وفي الخفاء،

يجب أن تحيا هذه

التجارب في مكان ما رغم ذلك.

إمر كيرتيس، مذكرات سفن القادس

تمهيد

كان ذلك في فصل الصيف، حين بقيت مع جدتي وحدي للمرة الأخيرة.

كان اسمها "لينيته" لكن الناس يطلقون عليها دائمًا اسم "نيته". حيث أمضت سنوات استقرارها الأخيرة في بلدة صغيرة جنوبي ألمانيا بها قلعة على طراز الروكوكو وشوارعها مرصوفة بالحصى، كما تحوي كنائس وحامية أمريكية. هنا كانت تشعر بالأمان. لكنني لا أعرف ما إذا كانت تشعر بأنها في بيتها.

حكت لي في تلك الأيام الحارة آنذاك ولآخر مرة عن سُفنها ومروجها، عن شياطينها وجنودها.

وفي النهاية قالت لي: "يا طفلتي، إن تاريخ العالم لا تصنعه النساء، لكن النساء يتعين عليهن العيش فيه." وتبعت ذلك بتنهيدة كبر سنها.

إذ كانت تقابل نفاذ صبر الشباب لدي بمثل هذه العبارات والتنهدات.

كنا نجلس في الحديقة بين أشجار الفاصولياء والتوت وتماثيل أقزام الحديقة والفلوكس. وقد انبعثت رائحة الطلاء القديم من المقاعد الخشبية بسبب شدة الحرارة.

كانت تسريحة شعري المصبوغ بلونين والتي تشبه شعر القنفد لا تعجبها، كما كنت أرتدي أقراطًا كبيرة الحجم لا تعجبها أيضًا، وهو ما ينطبق بدوره على البنطال الجينز المرقع، بل أن هذا كان أكثر شيء ترفضه، إذا أنها لم تجد فيما أرتديه أي شيء عاقل سوى السترة الجلدية. وتساءلت حينها لأول مرة في حياتي عن علاقة تاريخ العالم بجدتي.

حتى ذلك الحين لم يخطر ببالي مطلقًا أن آخذ حكاياتها على محمل الجد وأعتبرها واقعية بأي شكل من الأشكال. كانت تلك الحكايات بمثابة أساطير طفولتي التي تسللت إليّ بشكل لا يمكن تفسيره لكوّنه رهيب وجميل مع التدفق البطيء لصوتها العالي والمنخفض. إنعكست في مخيلتي على أنها صور غائمة غير واضحة باللونين الأسود والأبيض، تشبه الصور الفوتوغرافية التي يظهر فيها أقاربي البيض في ثياب بيضاء ومواطنون بابوانيون سود وجوههم مخططة باللون الأبيض، يقفوا جميعًا تحت أشجار نخيل.

كنت طفلة. أثبت حول يدي الاثنتين شَلّة صوف وأشدها بينما تلفها جدتي في شكل بكرة ليتنادل الخيط بيننا جيئة وذهابًا.

ثم جاء الجنود وتعيّن علينا الانصراف. إنها الحرب -

أخذت استراحة. لطالما كنت أعرف ذلك. بعد الحرب تأتي دائمًا استراحة. وكانت تأخذ نفسًا عميقًا ولا تقول أي شيء أو تفعل أي شيء.

تابعت أخيرًا بينما كانت تلف بكرة الخيط حول معصمها بسرعة مرة أخرى وقالت إن الضباط في المعسكر كانوا يتلهفون على جوز الطيب، ولم يتمكنوا أبدًا من الحصول على ما يكفيهم منه. لذا كنا نجمع لهم بعضًا منه.

رسمت في خيالي صورة لجدتي النحيلة بشعرها المعقود لأعلى ومئزرها الأبدي، وهي تنحني تحت أشجار الجوز محاطة برجال يرتدون أحذية فروسية ويحملون سياطًا. هذه الصورة حية في ذاكرتي كما لو أنني رأيتها بنفسي، وكما لو أنها حقيقة فعلاً. ولكن ما هي الحقيقة الكامنة وراء ذلك؟ أي نوع من الضباط كان هؤلاء؟ مع من كانوا يحاربون وضد من؟ مَن غيرها كان موجودًا في هذا المعسكر؟ وأين كانت حبات جوز الطيب تنمو على الإطلاق؟

لم تكن جدتي تحكي إلا وهي تفعل شيئًا آخر. بغض النظر عمّا كان يخطر ببالها وهي تلف خيوط الصوف أو تقشر التفاح أو تفعل أي شيء، فهي دائمًا ما كانت تفعل شيئًا. ربما كانت تنساني أحيانًا بكل بساطة، لأنها كانت تتحدث دائمًا ببديهية شديدة عن الأهوال والأخطار التي عادة ما نخفيها عن الأطفال. أتذكر حكاياتها عن سيدة اختطفها الشيطان في النهاية وماتت وعيناها تحدقان في رعب. كانت تؤمن بوجود الشيطان والأرواح الشريرة.

كانت جدتي مختلفة عن كافة البشر الآخرين في عالمي.

كانت تطهو أطباقًا غريبة وملونة. وتلف دائمًا مئزرًا واحدًا حول خصرها، إلا في الكنيسة، وأحيانًا اثنين. كما كانت ترتدي الكثير من الثياب فوق بعضها لدرجة أنها كانت تبدأ خلعها عند حلول الغسق ولا تنتهي إلا مع غروب الشمس.

كانت تبكي أثناء نومها.

كانت منتظمة مثل النهار والليل. إذ تكون موجودة حيث أستيقظ كما نذهب معًا للنوم.

كانت تنتف ريش الدجاج وتبيّن لي المبايض في أحشائها أثناء إخراجها. كانت تحيك جوارب من صوف بني خشن مريع. وكانت تهديء موجات الحمى بكمادات ثلجية. إختلقت قصة خرافية عن دجاجة قتلت الثعلب بالمقص.

في كل صباح كانت تجدل شعرها الخفيف في ضفيرة تربطها على شكل كعكة. لم تدم تلك الكعكة الضئيلة طويلاً أبدًا، كما ميّزت دبابيس الشعر المتساقطة آثار خُطى جدتي بين البيت والحديقة.

لم تكن لتقص شعرها أبدًا. كانت تعتقد أن المرأة لا ينبغي أن تفعل أشياءً معينة إذا لم تكن تريد أن تصبح قبيحة وغير محتشمة.

عندما انتقلت أنا رغم عدم استحسانها إلى برلين المحاطة بالروس - حيث قالت أنها تعلم أن النساء يُدخنّ ويعشن حياة ماجنة - كانت ترسل إليّ كل شهر خمسين ماركًا. وكانت تكتب في رسالة مصاحبة للمبلغ أنني يجب أن أشتري به اللحم وليس السجائر، وأني علي أخذ الحذر من الحُمر، أي الروس، ومن الرجال الذين يشربون الخمر ويلهون وليس لديهم نوايا جادة.

كانت تكتب الكثير والكثير من الخطابات، ليست موجهة إليّ وحدي، بل أنها كانت تواصل الكتابة حتى وإن لم تتلق ردًا.

عاشت لفترة طويلة دون أن يكون لديها هاتف في ظل الظروف المعيشية السيئة في ثلاثينيات القرن الماضي. لذا كانت تجمع العملات المعدنية الصغيرة على مدار الأسبوع لتحملها إلى كشك الهاتف بعد ظهيرة يوم السبت. وكانت تحتفظ بقائمة تدوّن فيها ما يتعين عليها الاستفسار عنه: ما إذا كان الطرد قد وصل، أو إذا ما كان تم التغلب على المرض والشفاء منه، وما إذا كانت النقود كافية أو إذا كان هناك امتحان أو زفاف أو ميلاد طفل وشيك. كانت تتحدث في جمل مقتضبة وقصيرة بينما تصدر العملات المعدنية صوت صلصلة وهي تنفذ عبر الهاتف. لم يتغير أسلوبها في الحديث حتى عندما أصبح لديها هاتفًا خاصًا بها لاحقًا. لم تثرثر أبدًا بل كانت تسأل وتجمع معلومات مثل الجاسوسة.

كانت تحتاج إلى كافة الحقائق التي يمكنها أن تتزود بها من أجل صلواتها. إذ كانت تُعدد كل يوم للرب أسماء هؤلاء الذين تريده أن يضعهم في قلبه. إذ كانت تعتقد أن لديه قلب. كانت صلواتها تمتد لوقت طويل، حيث تضاف باستمرار أسماء أخرى للقائمة من أحفاد الأحفاد

وضحايا الكوارث المتجددة دومًا. ولم تنس الأموات. كم كان يسعدها أن ذاكرتها لم تضعف وأنها لم تزل تحفظ جميع الأسماء الألمانية والأمريكية والهولندية وباليابانية والصينية، بما يرتبط بأصحابها من حكايات وعائلات وما كانت تطلق عليه اسم تظلمات. فهي كانت تؤمن بأن ربها لن يدعها تموت لأن واجبها كان الصلاة والدعوات لهؤلاء الناس. وهي كانت تؤدي هذا الواجب بكل ضمير وعلى أكمل وجه.

إلا أنها كانت ترتكب إحدى الرذائل، ولطالما حاربتها بما أوتيت من حكمة الروح البروتستانتية: إذ كانت تقرأ. لم تكن مجرد محبة للقراءة. بل كانت تقرأ بنهم مثل التمساح الجائع. كانت تقرأ وتغرق في مطالعاتها كما لو كانت تغرق في فراش وثير (ذلك الذي لم تحظ به أبدًا)، أو تغرق في السحب والأحلام بينما الوقت يمر والليل يمر ويكبر الأطفال ويزدادوا طولاً بمعدل ملليمتر إضافي وبينما كانت هناك أمور أخرى كثيرة يتعين عليها إنجازها. كانت تعرف أن هذه خطيئة. تلك الأمور المُختلقة التي تتألف منها الروايات، الاشتياق غير القابل للإشباع إلى واقع زائف ليس بالإلهي أو الإنساني حقًا: كان هذا بمثابة سُمًا للروح، وتكهنات ووقت مُهدر.

وقد رأت أنني وقعت في براثن هذا السم الحلو مثلها تمامًا، وهي بحكاياتها لم تكن بريئة تمامًا في هذا الصدد. لذا علمتني أين يكمن الاختلاف بين الكتب القيّمة وتلك التي لا يجب أن تحظى بالقبول. فالكتب القيّمة هي تلك التي تتكون من الحقيقة الخالصة، لذا تبعث في العادة على الملل بعض الشيء. والأكثر قيمة هي الكتب التي يمكن أن نتعلم منها شيئًا بخلاف ذلك، على سبيل المثال كيفية عيش حياة تقية يرضى عنها الرب حتى في ظل الظروف المعاكسة.

كانت الظروف المعاكسة في الغالب مُسلية حقًا.

في مرحلة ما قررت ألا تقرأ سوى الكتب القيّمة. فأصبحت كتب السير الذاتية هي مطالعاتها المفضلة، وكان الأحب إليها سير النساء اللاتي عانين من أزمات حقيقية في الغربة. وفي أغلب الأحيان كانت بطلات كتبها من النساء اللاتي يقمن بتبشير الوثنيين مثلها.

كانت حكاياتها الخاصة مقتضبة للغاية مما جعلها أكثر روعة عمّا كانت عليه بأية حال.

قالت إن الرجال جلسوا تحت بيتنا وأخذوا يهمهمون. كانوا ملونين. لم تكن نيتهم جيدة. إستمر هذا طوال الليل. كانوا أسفل مني مباشرة، إذ لم يفصل بيننا سوى أرضية الخيزران

الرقيقة. حتى أنني تمكنت من سماع أصواتهم، بينما كنت وحدي مع الأطفال الآخرين. ثم انصرفوا صباح اليوم التالي. أعتقد أنهم كانوا يمارسون السحر.

تلقيت حكاياتها مثل حكايات كل أقاربي بوصفها أحداثًا تجري في كتاب: حكايات ذات منطق خاص وغريب. كان الأمر كما لو أن فصولاً قليلة فقط من هذا الكتاب السميك هي التي تُقرأ. كانت الفجوات كبيرة والسياق غير واضح.

تتألف الحكايات المتوارثة شفهيًا كما أعلم اليوم من المسكوت عليه إلى حد كبير. وظللت لوقت طويل أعتقد أن كل شيء قد قيل ولم أسأل إلا قليلاً. إذ لم أعد أهتم حين تجاوزت سن القصص الخيالية وانشغلت بحياتي الخاصة. كما ضقت ذرعًا من كآبة هذه الملحمة العائلية.

كانت كنوز ماضينا محفوظة في خزانة خشبية سوداء من الصين. سكين من العظام مكسو بحمرة عصير التنبول. ريشة مشعثة لطائر عصفور الجنة، باهتة، في منديل حرير. رمح تزيين أنف مصنوع من العظام كذلك. حلقات من عرق اللؤلؤ بنقوش ذهبية. عقد مصنوع من صفوف صدف متعددة معقودة معًا. سلاسل من خرز العشب الرمادي. خصلة شعر طفل شبه فاسدة في علبة صغيرة مطرزة بخيوط ذهبية. شبكة كبيرة وأخرى صغيرة من الألياف النباتية. ثمرة قرع صغيرة مجوفة مدسوس فيها نصل من العظام. حلقات فوط سفرة من صدف السلاحف. ثلاث محارات عملاقة بأحجام مختلفة بها ثقوب يمكن النفخ فيها لإصدار صوت. زوج من الأطباق المصنوعة من الصفيح الأبيض المطروق منقوش عليه عبارة *Pure Coffee packed in Australia* أي *قهوة نقية معبأة في أستراليا.*

لم تكن هذه الأغراض ذات نفع ولكن ذكرها كان يرد في الحكايات التي كانت تُروى بين الحين والآخر حتى اهترأت مثل الحصى القديم المستقر في قاع جدول الماء ولم يعد أحد ينصت إليها ثانيةً، ما لم يعد يسبب إزعاجًا إذ يكفي أنها مستقرة في القاع في مكان ما أسفل السطح الذي تتحرك فوقه العائلة. إن قصة "كيف نجا الجد من حمى الملاريا" كانت واحدة من أكثر القصص التي تُروى باستمرار - بل والأكثر زيفًا كما اتضح لي فيما بعد.

أغراض بالية ومتربة من ذلك العالم الآخر الذي لم يعد له وجود. جزيرة غينيا الجديدة. قبل الحرب.

هكذا تحديدًا كانت عائلتي: أفرادها مشعثون وناجون من أمر ما بشكل ما، كما عمّ الكبار منهم ضجر وإرهاق استوائي يرجع إلى الماضي. كانوا يؤكدون لبعضهم بعضًا على مدى سعادتهم بالنجاة: من الأمراض، من الجنود ومن البحار. إذ لم ينجح الجميع في ذلك.

كان الإحساس بالتعطش إلى العمل والتفاؤل غريبًا عليهم، إذ تدثروا بكآبتهم كما لو كانت عباءة ثقيلة. بينما كانوا يتحرقون تحتها شوقًا إلى الجنة الخطرة التي فروا منها وقد احتفظوا بآخر آثار لها في تلك الخزانة. في الوقت نفسه كانوا يلعوننها، بصوت منخفض وفي أعماقهم كي لا يسمعهم الرب.

كان هذا هو ميراثي: خيوط العنكبوت وعظام منحوتة وكآبة وحزن.

إستغرق الأمر طويلاً حتى بدأت في استكشاف أرخبيل الحكايات في بحر صمت العائلة. إذ أردت أن أعرف ما علاقة جدتي بتاريخ العالم. جدتي لينيته التي ظلت حتى آخر لحظة وسط تماثيل أقزام الحديقة والطبيعة القروية ببيتها الصغير تحمل بداخلها الغابة العتيقة والموانيء وممرات الوداع وحِمل مهمتها الكبرى.

قالت إنها لم تزل تسمع أصوات أبناء بابوا وهم يرتلون أبانا الذي، كما تسمع صراخ استغاثة الصينيين في المدينة ليلاً.

لقد أهدتني خاتمًا من الذهب الأحمر، ذهب من جزرالهند الشرقية- الهولندية، ربما من نهر في جزيرة غينيا الجديدة. وربما لا.

أهدتني حكاياتها والثغرات التي بينها.

توفيت وعمرها مائة واثنين عامًا، وحيدة وهي نائمة.

الجزء الأول 1913- 1914

الرحيل

1
لينيته

ربما يكون أحد الأخوة هو من التقط هذه الصورة.

تبدو وهي تقف على جسر خشبي وتبتسم أسفل قبعتها. إبتسامة كبيرة ووقحة بعض الشيء، أقرب إلى كونها ابتسامة شماتة. فمها ناعم وواسع، وعيناها كامنتان في الظل. تستند بإحدى يديها على الدرابزين وتمسك قبعتها باليد الأخرى. ترتدي ثوبًا فاتح اللون ينهدل واسعًا عليها رغم أن ذلك كان وقت ارتداء مشد الخصر والملابس الضيقة: إنه صيف عام 1913. وهي في السابعة عشرة من عمرها.

إنه صيف انتصاراتها. لقد بدأ ذلك باكتشاف أخويها قبل عام لرياضة جديدة: رياضة التجديف إلى أسفل من أعلى الأنهار الجبلية في قوارب قابلة للطي. ولينيته تشاركهما ذلك. ولم يزعجها على الإطلاق أن تصاب يداها بفقاعات بسبب التجديف وتبتل تمامًا أمام أعين الجميع. حتى أن الصحف تحدثت عنها: فتاة شابة لا تخشى شيئًا في المياه البرية العاتية. إستعانت بها شركة كليبر التي تُصنّع هذه القوارب القابلة للطي بغرض الدعاية: كم هي أمنة قواربنا! وحين فاز الأخوة الثلاثة بسباق القوارب إكتملت الإثارة .

لم يلق ذلك القبول لدى والدة لينيته، إذ لا يناسب شيء من هذا القبيل امرأة شابة في سن الزواج. يتحدث الناس في القرية عن ذلك. وعندما يبدأ حديث الناس في قرية مثل روشا، لا يعرف أحد ما الذي سيسفر عنه ذلك، لا شيء جيد في الغالب.

روشا قرية مثل قرى كثيرة في فرانكونيا: تقع بين التلال الناعمة، حيث يلتقي أربعة شوارع عند الساحة المحيطة بشجرة الزيزفون، كما توجد بركة إطفاء عند أطراف القرية، مشتقة من فرع النهر الرفيع. يسمق برج الكنيسة عاليًا ليشق عنان السماء. تقرع أجراس الكنيسة في الصباح وظُهرًا ومساءًا، وكذلك يوم الأحد وقت القداس، وعند الاحتفال بزفاف أو تعميد أو إقامة جنازة. كما تقرع الأجراس عند اندلاع حريق.

وتصل أصوات الأجراس بعيدًا حتى الساحات المهجورة. يركض الأطفال في كل مكان حفاة في قطعان مثل الأوز إذا لم يكن ذووهم قد أرسلوهم إلى الحقول أو المدرسة أو الكنيسة.

يتناثر روث الأبقار في الشارع، كما نجد مقشة ذات يد خشبية أمام كل بيت، وبالداخل يموت الذباب في أعداد غفيرة على شرائح ورق لاصقة أسفل السقف. تنبعث رائحة اللبن الرائب، والروث، وأحيانًا رائحة المطر. في الخريف، وخاصة في الربيع حين يذوب الجليد تكتسي الشوارع والأفنية بالوحل، الذي يطلقون عليه هنا اسم الطين.

لا يحدث كثيرًا في مكان مثل هذا: أن يضرب البرق مخزن غلال، أو تُدمر قطع الثلج الصغيرة والحادة أو بالأحرى البَرَد المحصول، أو تنجب فتاة صغيرة طفلاً. إذا حالفها الحظ يتزوجها أحدهم. تعزف فرقة آلات النفخ النحاسية في أعياد الميلاد المجيد أو عيد الفصح أو عيد ميلاد الإمبراطور أو معرض الرعية أو عيد الانتصار على الفرنسيين. يذهب الرجال إلى حانة القرية مساءًا وأيام الآحاد بعد الكنيسة. وهو ما لا تفعله النساء، أما الرذائل الأخرى مثل شرب الخمر ولعب الورق فمكانها مخازن الغلال بالحقول. يصيح أحيانا أحد السكارى في الليل. وبخلاف ذلك يخيم السكون، ونادرًا ما تنعق بومة فيعرف الناس أن أحدًا سيموت. لقد مات والد لينيته أيضًا. ومنذ ذلك الوقت ترتدي والدتها السواد شأنها شأن كل النساء الأكبر سنًا بالقرية.

كان الوالد موظف جمارك، لذا لم يكن لدى آل مارشاند أكوام روث على عتبة بابهم شأنهم شأن المعلم والقس بالطبع. كان هناك اشتباه حول الأسرة بأنهم يعتبرون أنفسهم مميزين. وما زاد الأمر سوءًا كون الابنة الأكبر سمحت لنفسها بأن تظهر في العلن وهي مبتلة تمامًا دون احتشام. فضلاً عن أن ذلك يحدث في قارب يخجل منه أي صياد. عندما كانت لينيته صغيرة كانت الأسرة تعيش في نقطة جمارك في الجبال، أسفل التلال التي ترسم الحدود. هناك كان جميع الناس يعملون بالتهريب، فالحياة صعبة بأعلى. حتى أن الأم كانت تخيط بنفسها جيوبًا عميقة إضافية للنساء في تنوراتهن الداخلية حتى لا يعثر الأب على الخمور والأغراض الأخرى التي كُن يعبرن بها الممر. فالخياطة مهنة عائلية، يكسب النساء قوتهن من الخياطة على مدار أجيال.

إلا أن لينيته رسمت خططًا أخرى لنفسها منذ ذلك الصيف الذي ذاع فيه صيّتها مع أخويها في قاربهم المطاطي القابل للطي. فقد غادرت القرية وأقاويلها وانتقلت إلى العاصمة حيث يسكن الأخ الأكبر كريستوف أيضًا، لتتعلم في إحدى المدارس الداخلية للراهبات

الصالحات. تعجبها المدينة الكبيرة، كما تعجبها المدرسة الداخلية، ويعجبها صديق مقرب لأخيها لديه هو أيضًا قارب قابل للطي.

إلا أن أمريكا كانت حلمها.

قررت هي وكريستوف، الاثنان الأكبر سنًا، أن يذهبا معًا. كان الوالدان يرسمان له نفس مسيرة موظف الجمارك البافاري الملكي، ولكنه أراد أن يصبح مهندسًا ومخترعًا. وهو ما لايمكن تحقيقه إلا في أمريكا.

في المنطقة التي ينحدران منها، تلك المنطقة البعيدة عن كل البحار والمليئة بالأنهار الصغيرة والغابات الصغيرة والهضاب والقلاع تزدهر منذ قرون حرفة متميزة للغاية: لاسيما تصنيع الكرات الأرضية. قبل أن يتمكن كولومبوس من أن يحكي للأوروبيين عن أمريكا، كان المبتكرون والتجار قد صنّعوا نسخة خاصة بهم للأرض أسموها تفاحة الأرض، قبل أن تصل أولى ثمرات تفاح الأرض الصالحة للأكل، أي البطاطس، قبل أن تصل تلك الثمرات إلى البلاد.

كانوا يزينون تفاحتهم برسومات المحيطات ذات اللون الأزرق الفاتح والقارات والجزر باللون البني الترابي. ثم يزودونها لاحقًا بإرشادات حول ما يمكن شراؤه وأين: التوابل والحرير والبهار. يدور كل هذا داخل إطار هيكلي مثلما تدور الأرض حول نفسها. وكانت تفاحات الأرض أو بالأحرى البطاطس ذات نفع على عكس التفاح الإمبراطوري للأباطرة والملوك المعروف بجوهرة الكرة الأرضية والصليب رمز السلطة المسيحية منذ العصور الوسطى: فهي تبين كيفية الوصول إلى ثروات وكنوز العالم. في بعض القرى مثل روشا كان الناس يعتبرون أي تاجر بمثابة المحتال منذ قديم الأزل، بغض النظر عمّا إذا كان يتاجر في الماشية أو الحديد، وعمّا إذا كان يهوديًا أو من الغجر الرُحّل أو قادمًا من المدينة. لم يكن لهؤلاء المزارعين أية علاقة بشغف التجوال: فهم لديهم الأساس والأرض بمّا عليها من أطفال كثيرين. كذلك عهِد فقرهم المتأصل سببين لمغادرة الوطن: الحاجة والتعليم. كما أنهم بخلاف ذلك كانوا يعتبرون السفر مضيعة للمال أو سرقة للأيام أو ربما ما هو أسوأ من ذلك. حتى شغف لينيته بالسفر كان ذا طابعًا عمليًا: إذ كانت ترغب في كسب المال في أمريكا.

كانت تقول أن حركة عربات الحنطور في ميدان تايمز مروعة، أسوأ مما هي عليه في ميونيخ في ميدان شتاخوس. كان ذلك في إحدى الأمسيات التي حكت لي فيها عمّا كان يتبادر إلى ذهنها. هذا ما اعتقدته على أيه حال، لكنها ربما كان لها نظام ما، ربما كانت تتبع ذكرياتها وفق مسارات منطقية كانت تتجاوزها معي ثم تعود وتجدها مرة أخرى دون عناء، طرق أدغال، سلكتها آنذاك وآنذاك وآنذاك. آنذاك بعد الحرب، وآنذاك قبل الحرب، وآنذاك أثناء الحرب.

كنت أنصت إليها، منهكة تحت تأثير طقوس خلع ملابسها. يأتي المئزر في أول الدور، ثم السترة والفستان والبطانة والتنورة الداخلية والجوارب وحزام الخصر. الأمر الذي يستغرق وقتًا طويلاً. ثم تفك في النهاية الضمادات المرنة التي كانت تلفها حول ساقيها. كنت أغفو في كل مرة قبل أن تنتهي. لم أر ساقيها عاريتين أبدًا. كان الظلام يحل مع رنين صوتها لتتحول حكاياتها إلى أحلام. وأنا لا أعرف حتى يومنا هذا أين هي الحدود الفاصلة بينهما تحديدًا.

عندما تحدثت عن كريستوف للمرة الأولى كان الظلام قد حل. لابد وأن ذلك كان في فصل الشتاء. كان المصباح مغطى بقماش لتعتيم الضوء، بينما أحاط بنا نسيج الظلال المناسب. لم أكن أعرف عن وجود أخ حتى ذلك الوقت، لم أعرف سوى الخالة بابيت، أختها الصغرى. وفجأة دار الحديث عن اثنين من الأخوة، كريستوف ولودفيج، الأول أكبر منها والآخر أصغر. كما تحدثت عن قاربهما القابل للطي. وعن ميونيخ حيث لم تكن نيته تجرؤ في البداية على الخروج إلى الشارع وحدها.

إصطحبني كريستوف معه وأراني المدينة. حيث ركبنا الترام حتى وصلنا إلى الجبال ومررنا بالأنهار. إزداد صوتها انخفاضًا حين قالت: لقد سقط كريستوف. سقط في فرنسا. الحرب. ثم سمعت أصواتًا مثل تلك التي تصدر عن فرخ صغير، فرخ عاري خرج لتوه من البيضة، يتجمد. إستغرق الأمر وقتًا طويلا حتى أدركت أن جدتي كانت تبكي. كيف لها أن تبكي هكذا على أمر حدث منذ زمن بعيد؟

في غضون ذلك كان قد مر قرن بأكمله على ذلك، على تلك الحرب. في غضون ذلك أصبحت أعرف أن الزمن يحفظ الأموات مثل الجليد الأبدي: فهم ينظرون إلينا بعين شابة بينما ننسى نحن للحظة أنهم لم يعد لهم وجود هنا وأننا نعيش دونهم منذ وقت طويل.

تشير قائمة ضحايا الحرب العالمية الأولى، وهي عبارة عن صفوف أسماء لانهائية بالأحرف القوطية، تشير إلى أن كريستوف مارشاند من روشا توفي في فرنسا في مايو عام 1918. وكان قد تطوع للذهاب إلى الجبهة في أغسطس عام 1914. وما هي إلا أشهر قليلة بعدها حتى كرر الأخ الأصغر لنيته الأمر ذاته، بمجرد بلوغه السن المناسب. وقد قُتل قبل أخيه الأكبر بفترة وجيزة، أي قبل فترة عيد الميلاد (الكريسماس) لعام 1916.

لم تحك لي جدتي عن صديق أخويها الذي كان يمتلك بدوره قاربًا قابلاً للطي إلا في وقت لاحق، عندما كبرت وأصبحت بالغة. لم تكن مخطوبة له رسميًا، ولم يكن هناك صور فوتوغرافية له، كما لم يكن له اسمًا في عائلتنا. وقد سقط قتيلاً حين أصبح برتبة ملازم. **ضابط،** قالتها جدتي بلغتها الألمانية ذات اللكنة الهولندية، التي كانت تستخدمها دائمًا عندما يتعلق الأمر بمفردات الحرب.

لم تتحدث مطلقًا عن الحب. لم تستخدم هذه الكلمة. حتى حين كانت تتحدث عن أخويها وعن زوجها أو أبنائها. أبدًا. فقط أسفل شجرة الميلاد كانت تغني وتقول: *أريد أن أغوص في حبه تمامًا، أن أمنحه قلبي وكل شيء أملكه.* كان صوتها يرتج ويهتز أثناء الغناء. لم أحب ذلك. إذا كان الأمر يتعلق بالطفل يسوع الذي يستلقي في المزود يحدق في السماء. عيناه زرقوان...

إلا أنه في ذاك الصيف البعيد، عندما انطلقت صوب العالم وهي شابة وشجاعة ومشهورة إلى حد ما مع أخويها ومع ضابط مستقبلي لتجدف في أنهار الألب العاتية والبرية كان الحب والحياة من الأمور الأرضية الدنيوية للغاية بالنسبة لها. تلك الابتسامة البادية أسفل ظل القبعة والموجهة إلى الأخوين الذين يرتديان قبعات قش أنيقة وإلى شخص يقف بجوارهما. فمها الواسع المستمتع.

إنه العام 1913. عام الانطلاقات والبدايات. حيث بدأت الحكاية بأكملها، حكاية المستعمرات وعائلتي: حكاية اشتياق أربعة شباب، لترك وحل قريتهم خلفهم. مزيج من حب السفر والحاجة والثقة في الرب. إنتقلت امرأة شابة إلى المدينة وتمت خطبة أخرى. إنطلق رجلان شابان إلى بحر الجنوب. جمعيهم من منطقة روشا ولم يروا البحر من قبل. كانوا قد قضوا حياتهم قبل ذلك دائمًا بين كنيستهم وتلالهم وأنهارهم، ولم يعرفوا بحيرات كونستانس

من قبل. كانوا جميعًا يحدوهم أمل في حياة أفضل. لم يحسب أحد حسابًا لحرب. كان هاينر مور أول الراحلين.